آثار عسير بين سندان التجاهل ومطارق المشاريع (*)

أ.محمد بن أحمد بن مُعَبِّر

(*) دراسة منشورة في كتاب : القول المكتوب في تاريخ الجنوب ، لغيثان بن جريس (الطبعة الاولى)(الرياض: مطابع الحميضي ، ١٤٤٢هـ/٢٠٢١م)(الجزء الثاني العشرون)، ص ص ١٩٦-٢٠٥.

خامساً: آثار عسير بين سندان التجاهل ومطارق المشاريع. بقلم. أ. محمد بن أحمد معبِّر [١]:

أولاً: مقدمة:

وصلني هذا البحث من صاحبه (ابن معبر) يوم الخميس (٢٢/المحرم/١٤٤٢هـ الموافق ١٠/سبتمبر/٢٠٢٠م) وبعد قراءته حرك في صدري الألم والحسرة على ما أصاب تراثنا وآثارنا السطحية والمدفونة في بلادنا (المملكة العربية السعودية) بشكل عام، وأراضي تهامة والسرة بشكل خاص. هذا ما عرفته وشاهدته وسمعت عنه خلال الـ (٤٥) عاماً الماضية، فقد تجولت في مواطن عديدة من أراضي السعودية، وسرت في أرجائها الجنوبية من الطائف ومكة إلى جازان ونجران، وزرت الكثير من جامعات ومتاحف العالم العربي وبلدان الشرق والغرب، وحضرت الكثير من الندوات والمؤتمرات واللقاءات والمحاضرات العلمية، وتأكد لي أننا ما زلنا متأخرين جداً في إدراكنا ووعينا بتراثنا القديم. والنقوش والرسومات الصخرية والآثار المادية المتنوعة تأتي في مقدمة هذا الموروث الحضاري.

ونجد العديد من المستشرقين الأوربيين والأمريكيين ارتحلوا في مواطن عديدة من جنوب شبه الجزيرة العربية، ووقفوا على بعض الآثار المتعددة في أشكالها ومحتوياتها العلمية، وبعضهم ذكر شيئاً منها في مدوناتهم وكتبهم، وآخرون حملوا بعضها إلى بلدانهم، وهي حتى اليوم (١٤٤٢هـ/٢٠٢٠م) مازالت معروضة في متاحفهم ومكتباتهم ومراكز أبحاثهم [٢].

وعندما تطورت بلادنا تنموياً واقتصادياً نتج عن ذلك اعتداء البشر على الطبيعة، فقضوا على الكثير من غطائها النباتي، وهجروا ثم خربوا الكثير من موروثها الحضاري، ولم يلتفتوا إلى القيمة المادية والمعنوية لتراث آبائهم وأجدادهم، وأصبح هم

---

(١) أنظر كتابه: نقش القلم (٤٤٦ صفحة).

(٢) هذا ما عرفته وشاهدته في عدد من متاحف أوربا، وتحدثت مع بعض القائمين على تلك المتاحف، فشرحوا لي شيئاً من تاريخ وطرق نقل تلك الآثار من مواطنها الرئيسية في شبه الجزيرة العربية. وإن بحثت عن المخطوطات، والوثائق والكتب النادرة عن تراث العرب والمسلمين فهي أيضاً موجودة بالآلاف في مكتبات الكثير من الدول الغربية والشرقية. بل إن بعض الرحالة الغربيين ذكروا في مدوناتهم معلومات عن الآثار التي رواها أو نقلوها إلى بلادهم في أمريكا وأوروبا. للمزيد اطلع على كتب الرحالة والمستشرقين الغربيين الذين زاروا شبه الجزيرة العربية منذ القرن (١٢- ١٤هـ/١٨- ٢٠م).

الفرد والجماعة الترقي في سلم الحياة المادية المدنية، وحصروا ذلك التطور والترقي في الأكل والشرب، وبناء الدور، وشراء المراكب، وكسب الرزق والمال. وكل هذه الأعمال مشروعة ولا تثريب على من سار في هذا الطريق، لكن الغالبية لا يسعون ويدركون أهمية كل موروث قديم وبخاصة ما له علاقة بتاريخ وحضارة الأمم.

ومؤسساتنا التعليمية والثقافية والإعلامية مازالت متأخرة في رعاية وحفظ ما تحويه بلادنا من موروث وتراث قديم، فلا نرى جامعات أو كليات أو أقسام علمية تكرس جهودها الفعلية في خدمة هذا الجانب، وإن وجدت بعض الأنظمة، أو القرارات، أو اللوائح عند بعضها فهي مجرد إجراءات روتينية. وإن نظرت إلى الأفراد والجماعات أو المؤسسات الإدارية الحكومية والأهلية الأخرى فهي غير مكترثة بصيانة أو حفظ آثارنا وتراثنا القديم المعنوي والمادي، بل الأكثرية لا تعي وتدرك أهمية هذا التراث. [١]

والأستاذ محمد بن معبِّر دون في هذه الورقات خلاصة معاناة ما سجله الأستاذ أحمد بن علي مطوان في كتابه الموسوم بـ: **<u>تأثير محطة الصرف الصحي بمحافظة سراة عبيدة على التراث الطبيعي والثقافي في الموقع</u>** [٢] وأخلص مما رصده ابن معبِّر ببعض الآراء والأقوال التي أسردها في النقاط الآتية:

١. إن ابن مطوان وابن معبِّر يحملان هم الآثار والتراث، لأنهما يدركان أهمية هذا المصدر في حفظ تاريخ وحضارة وتراث الأمم. وهناك باحثون كثر يحملون الهم الذي يحملانه، لكنهم لا يستطيعون فعل شيء لما يقابلهم من صعوبات علمية ومادية وغيرها. ولأن في مجتمعاتنا من هم خائفون وجلون على هذا التراث، فتلك ظاهرة جيدة، نأمل أن تزداد قاعدتها حتى نرى جهود رسمية عملية لحفظ وخدمة هذا الموروث الحضاري.

٢. إذا كان ابن مطوان أصدر كتاباً عن اعتداء إحدى المؤسسات الإدارية على بعض الآثار في سروات قحطان، ويطالب بالحفاظ على هذا الموروث، فليس الوحيد الذي يفعل ذلك، وإنما هناك كثيرون كتبوا في الجرائد أو الكتب، أو تحدثوا في الندوات والمؤتمرات واللقاءات ونادوا بالحفاظ على كل شيء معرفي تراثي قديم، ومنهم من نجح في أقواله ونداءاته، وآخرون لم يحالفهم النجاح. والواجب على الجميع أفراد، ومؤسسات أهلية وحكومية أن تعي بأهمية هذا التراث والحفاظ عليه.

---

(١) أقول هذه الخلاصات مدركاً صحتها، فقد عرفت وبحثت وناقشت وحاضرت في هذا الميدان لسنوات طويلة، ومازلت أنادي بأهمية هذا الموروث والحفاظ عليه ودراسته وتحليله، لكن مازال التجاوب قليلاً جداً، وأسأل الله أن نرى في قادم الأيام قرارات سيادية تدعم وتشجع وتحمي تراثنا وآثارنا الحضارية المحلية.

(٢) حتى الآن (١٤٤٢هـ/ ٢٠٢٠م) لم أطلع على هذا الكتاب، آمل أن أحصل عليه وأقرأه في قادم الأيام

٣. الأستاذ محمد بن معبر سرد في نهاية بحثه عن ابن مطوان وكتابه صوراً عديدة للكثير من النقوش والآثار في بلاد السروات، وأعتقد أنه جلبها من كتاب أحمد مطـوان الآنـف ذكره، الـذي لم أطلع عليه حتـى الآن، وقد اسـتبعدتها في هذه الموسـوعة ومن أراد الاطلاع عليها يجدها في الكتـاب المذكور أعلاه. وأقول إن بلادنا السـروية والتهامية مليئة بالآثار والنقوش، وتستحق تكاتف الجهود من الجامعات والوزارات المختصة فتدعم وتشجع من يجمعها ويحفظها ويدرسها، ولن يتم ذلك إلا بإشراف رسمي من وزارة الثقافة، أو هيئة السياحة، ولا نريد فقـط جمع بعض هذا التراث وعرضـه في بعض الصـالات أو قاعات المتاحف، وإنما نتطلع إلى تكوين فرق عمل علمية تقوم على رعايته ودراسته.

ثانياً: آثار عسير بين سندان التجاهل ومطارق المشاريع:

في منطقـة عسـير ــ في جنـوب البـلاد السـعودية ــ وعلـى الحـدّ الفاصـل بـين محافظـة أحـد رفيـدة ومحافظـة سـراة عبيـدة، خَلَـد أحـد المواقـع الأثريـة في سـبات عميـق منـذ العصـور الحجريـة ومـا بعدهـا حتـى جـاءت معـدات (مشـروع الصـرف الصـحي) وجلبت خَيْلها ورَجلها لتدمر الآثار الطبيعية والثقافية، ضـاربة عرض الحائط بالأنظمة والتعليمات الصـادرة من مؤسسات الدولة العليا التي تنص على المحافظة على الآثار الطبيعية والثقافية، وعدم المسـاس بها أو تدميرها من خلال المشـاريع، أيّاً كانت هذه المشـاريع. وظهر صـوت الأسـتاذ أحمد بن علي مطوان يعلن عن الخطر المحدق بالآثار الواقعة في نطاق مشـروع الصـرف الصحي، وغيره من المشـاريع في الموقع المشـار إليه آنفاً، وفي سبيل ذلك أصدر كتابه: **تأثير محطة الصرف الصحي بمحافظـة سـراة عبيدة علـى التراث الطبيعـي والثقافي في الموقـع**، ويقع في (٢٢٧) صفحة، بحجم (٣٣×٢٨سم).

ويُعرّفنـا المؤلف على الموقع بشـكل عـام، فيقول: تقع منطقةٍ عسـير في جنوب غرب المملكة العربية السعودية بين دائرتي العرض (١٧ ـ ١٠) شمالاً، وخطي الطول (٣٠،٤٤ ــ ٣٥،٤١) شـرقاً، ويحدها من الشـمال منطقتـي مكة المكرمة والباحـة، ومن الجنوب منطقتي نجران وجازان، وجزء من الحدود بين المملكة العربية السعودية واليمن، ويحده من الغرب منطقتي مكة المكرمة وجازان، والبحر الأحمر ومن الشـرق منطقتي الرياض ونجران. ويقع محيط معالجة مياه الصرف الصحي بمحافظة سراة عبيدة الذي يختص به هذا الكتاب على الحد الفاصل بين محافظتي أحدٍ رفيدة وسراة عبيدة بمنطقة عسير وعلى ارتفاع(٢٤٠٠م) فوق سطح البحر ويتبع إدارياً المحافظة سراة عبيدة.

يتميـز محيط موقع المحطة بوقوعه ضـمن حرة السـراة البركانيـة حيث تتناثر في أجزاء من الموقع الصـخور البركانية السـوداء في القمم التي سـاعدت على رسم بعض

النقوش عليها، كما ساعدت إنسان العصر الحجري على الاستفادة من هذه الصخور في صنع أدواته المختلفة والأجزاء الأقل انخفاضاً تحتوي على صخور كلسية بيضاء جميلة ساعدت على تشكيل بعض الكهوف وساعدت على سرعة تجميع وانسياب المياه إلى المواقع الأثرية التي ساعدت إنسان العصر الحجري على الزراعة. وتغطي الحرات (حقول واسعة من صخور اللابة البركانية) مساحات كبيرة من الجزء الغربي من الرصيف القاري العربي تقدر بحوالي (١٨٠ ألف كيلو متر مربع) وتمتد شمالاً في حزام عريض متقطع من اليمن في الجنوب وحتى سوريا في الشمال. ويربط توزيع هذه الحرات بحركات التكسر الشديدة (تشرخ وتصدع) المصاحبة لانفتاح أخدود البحر الأحمر الذي نشأ في نهاية عهد الأوليجوسين أو بداية الميوسين حوالي (٢٥ مليون سنة) عندما كانت الكتلة القارية العربية والإفريقية في طور الانفصال.

يوجد في محيط محطة الصرف الصحي بعض الأودية وأهمها (وادي المنشر) الواقع شمال المحطة، الذي يبقى الماء في أجزاء منه على مدار العام. وعن الأسباب التي أدت إلى اختيار هذا الموقع مكاناً للاستيطان عبر التاريخ، يقول أحمد مطوان: " منذ البدايات الأولى للحضارة البشرية درج الإنسان عند اختيار مواقع استيطانه على توفر عناصر محدودة وأساسية لا بد من توفرها في المكان الذي يستوطنه، لعل أهمها مصادر الحياة الأساسية المتمثلة في الماء والغذاء، وتوفر المادة الخام الضرورية لصناعاته واستخداماته اليومية، كالأدوات الحجرية والأواني الفخارية وغيرها، هذا بالإضافة إلى توفر العنصر الأمني" .

لعب الموقع الجغرافي والتشكيل الجيولوجي لموقع محيط الصرف الصحي دوراً في جذب الإنسان إليه والاستيطان فيه. إن وجود مصادر للمياه والموقع المميز لوقوعه على طريق القوافل القادمة من جنوب الجزيرة إلى مدينة جُرَش الأثرية، هذه العوامل، مما لا شك فيه، ساهمت بشكل إيجابي في تكيف الإنسان مع موقعه واستمرار العيش فيه على مدى التاريخ. وهناك عناصر مهمة لا بد من توفرها عند اختيار منطقة ما للاستقرار وبداية الاستيطان، لذلك كان الإنسان يسعى دائماً منذ القدم حتى الوقت الحاضر، باحثاً عن هذه العناصر وتوفرها في المناطق التي يريد الاستقرار بها، وأهم هذه العناصر:

١ ـ الماء:

كما هو معروف أن الماء هو عنصر الحياة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾، لذلك دائماً ما يبحث الإنسان عن المواقع القريبة من عناصرَ المياه لَيستوطنَ بالقرب منها. ومحيط موقع محطة الصرف الصحي هناك شواهد كثيرة على وفرة الماء العذب فيه، بل إن المنحدر الطبيعي الخاص بتصريف مياه الصرف يحوي مسطحات مائية على مدى العام وقلما تجد مثل هذه المسطحات في مواقع أخرى.

٢ ـ الغذاء:

كان الإنسان يبحث عن عناصر العيش ووفرة الغذاء فالماء تعتمد عليه النباتات كقاعدة لسلسـلة الغـذاء وإن توفر الماء والنبات توفرت الحيوانات كعنصـر غذائي آخر للإنســان، ويلاحظ وجود مواقع أشبه بالمزارع في مواقع استيطان إنسان ما قبل التاريخ في الموقع.

٣ ـ الأمن:

بحث الإنســان أيضــاً عن مواقع الاســتيطان التي تؤمن له الأمن والحمايــة من العوامل الطبيعيــة ومــن الأعداء، والحيوانات المفترســة، والقمــم الجبلية المرتفعــة في الموقع، وبعض الكهوف والتشكيلات الجيولوجية أغرت الإنسان بالاستقرار في الموقع لتوفر الحماية الطبيعية.

٤ــ المواد الخام ومصادر الإنتاج:

غالبا ما تكون المواد الخام بالقرب من المنطقة التي يختارها الإنســان للاســتيطان حتى يستفيد منها في صناعاته، وقد تصل أحيانا إلى أن تصبح ذات مردود اقتصادي. ولعل الإنسان القديم وجد غايته بالعيش في محيط موقع محطة الصرف الصحي لوفرة وتنوع المادة الخام. هــذه العوامــل مجتمعــة يمكننا ملاحظتهــا والتعرف عليهــا في محيط موقع محطة الصــرف الصحي، وذلك من خلال تقسيم محيط موقع الصرف الصحي إلى ثلاثة أجزاء رئيسية:

أ- المنحدرات الطبيعية:

يتربــع مشــروع محطة الصــرف الصــحي فوق عدد مــن المنحدرات، تجــري فيها ســيول الأمطار حتى لو كانت كمية الأمطار الســاقطة قليلة، نظراً للتركيب الجيولوجي للموقع، فتتجمع المياه بســرعة من قمة الهضــبة التي تقع عليهــا المحطة، ومن قمة جبل الحاجب وســفوحه وتسقط كشــلالات لتسيل مباشــرة في مجرى الموقع، وهذا ما جذب مســتوطنات العصــر الحجري على جنبات هذا المجرى، كما يحتوي هذا الموقع إضــافة إلى مستوطنات العصر الحجري على كهوف، وأدوات حجرية ومذيلات، ورجوم ركامية، ومقابر وكســر فخار. وتوجد آثار لمزارع قديمة ربما اســتخدمها الإنســان القديم خاصة أنــه عــثر على أدوات حجرية تشــبه المناجل. إضــافة إلى التراث الطبيعــي في الموقع من تشكيلات جيولوجية وتنوع حيوي ومجاري مياه طبيعية تكون مسطحات مائية تبقي المياه في بعض المواقع على امتداد الوادي على مدار العام. والموقع يحتاج إلى حمايته ودراسته، كمــا أن أجــزاء قريبة من الموقع تدعــى الخربة يدل على أن الموقع كان عامراً ثم أصــبح خراباً. وموضــع الخربة وامتداد الوادي يعتبر من أهم المعابر للقوافل المتجهة من جنوب الجزيرة إلى مدينة جُرَش الأثرية، ويدل على ذلك الطرق المبنية والممهدة لعبور الدواب.

ب – الجبل البركاني المشرف على الموقع:

لعــل هذا الجبل (جبل الحــاجب) كان كالبرج الطبيعي في الموقع، وربما كان يؤمن

الحماية الطبيعية لسكان الموقع، إضافة إلى تركيبه الجيولوجي الذي أشبهه بتركيب مادة الإسفنج عندما تمتص الماء، فالجبل حرة بركانية يتركب من حجارة سوداء من البازلت، ويختلط مع هذه الحجارة التربة الطينية، مما يساعد على امتصاص الماء، وتبقى المياه تنساب لفترة طويلة بعد توقف الأمطار، وهذا أمر مشاهد إلى وقت قريب، مما ساعد على تشكل المستوطنات، وتوفر المادة الخام لصناعة الأدوات الحجرية من البازلت والصوان، إضافة إلى كسر الفخار، وساعدت حجارته السوداء على جعله مرسماً عبر التاريخ فتنتشر فيه الرسوم الصخرية وبعض الكتابات الثمودية والنقوش الإسلامية. وأكاد أجزم أن الأدوات الحجرية الموجودة في قمة الجبل البركاني تعود للمرحلة الأشولية، نظراً لضخامة الفؤوس المستخدمة والسواطير الضخمة جداً، والمعاول والمكاشط الكبيرة التي كانت مادتها الأساس صخور البازلت وصخور الكوارتز المتوفرة طبيعياً في الموقع، وإن كنت أعتقد بأن الموقع مر بتعاقب الاستيطان لوجود بعض الأدوات التي كانت سائدة في الثقافة الألدوانية (المهاشم) والعصور الحجرية المتأخرة، نظراً لظهور بعض الأدوات التي استخدم فيها الصوان بدرجة كبيرة في صناعة السكاكين الحجرية، وهذه المواقع أسفل جبل الحاجب، وبعض الأدوات القزمية أسفل الجبل، إضافة إلى كسر فخار، ووجود رؤوس سهام، لكن الملاحظ عدم وجود رؤوس السهام المعنقة التي ظهرت في العصر الحجري الحديث. ونجد في سفح الجبل قرية أو مدينة متكاملة من العصر الحجري، وللأسف أن يد التخريب طالت أجزاء منه بسبب التعديات، وتحويل إنشاء مشروع تحلية الماء من الشارع العام ليعبر عبر المواقع الأثرية، مما تسبب في تدمير بعض المواقع الأثرية. وقد تم منع تنفيذ المشروع وإعادته إلى مساره الطبيعي بفضل الله أولاً ثم بفضل الهيئة العامة للسياحة والآثار بعد التواصل معهم.

جـ - الأودية ومجاري السيول المحيطة بالموقع:

هناك عدد من الأودية القريبة من (مشروع محطة الصرف الصحي)، من أهمها وادي المنشر الذي يخطط له بأن يكون موقع لتصريف مياه الصرف بعد اكتمال المشروع، وتتميز هذه الأودية بوجود المذيلات والدوائر الحجرية على ضفافها، إضافة لوجود مسارات وعقبات قديمة ممهدة، ووجود أساسات مباني قديمة محكمة البناء وركام الأبنية، والأدوات الحجرية في الموقع وكسر الأواني الفخارية والأواني الحجرية. وهذه الأودية تحوي تنوعاً نباتياً وحيوانياً ساعد على جذب الإنسان إلى الموقع والاستيطان فيه، وفيها مسطحات مائية شبه دائمة على مدار العام في بعض المواقع.

ومن أهم عناصر التراث الثقافي الآثاري في محيط موقع محطة الصرف الصحي ما يلي: (١) النقوش والكتابات على الصخور. (٢) مواقع الاستيطان. (٣) الأدوات الحجرية المختلفة. (٤) كسر الأواني الفخارية. (٥) أساسات المباني والركام. (٦)

المذيـلات الحجريـة. (٧) المقابـر. (٨) الدوائـر الحجريـة. (٩) الطـرق والعقبان القديمة.

يتميز الموقع بتنوع نباتي وحيواني يمثل البيئة البِكْر لبعده عن مصادر التلوث والإزعاج، وجـود مسـطحات مائية شـبه دائمة طوال العـام، وَيزيد من جمـال الموقع تلـك التكوينات الجيولوجيـة ذات الجمـال الطبيعـي. وعلى صـفحات كتابه بقـدم لنا أحمد مطـوان مئات الصور للنقوش والكتابات والأدوات الحجرية، وكسر الأواني الفخارية، والمذيلات الحجرية، والدوائـر الحجريـة، والمواقـع الطبيعيـة، وهـي في مجموعها تـدل دلالة قاطعـة على وجود استيطان بشري قديم في هذا الموقع. ثم يضع خلاصة تجربته وبحثه عن هذا الموقع فيما يلي:

١. الموقع الجغرافي في مكان محطة الصـرف الصحي الذي تحيط به يشتمل على أودية تحتوي على موارد مائية وتنوع حيوي ثري وتراث ثقافي على مر العصـور مـن خلال وجـود العديد من الرجـوم الركامية والمذيـلات الحجرية والدوائر الحجريـة في الموقـع، ومئـات النقوش والرسـوم الصـخرية، وآلاف الأدوات الحجرية، وأساسـات المباني والقطع الفخاريـة وطرق القوافل المبنية والممهدة للقوافل التي كانت تسلك طرق هذه المنطقة، نزولاً إلى مدينة جُرَش التاريخية.

٢. وجود الموارد المائية والطبيعية والتنوع الحيوي في الموقع إضافة إلى وقوعه على درب القوافل، جعله موقعاً مناسباً لاستيطان إنسان ما قبل التاريخ.

٣. الصـخور البركانيـة (البازلت)، سـوداء اللون، في أجـزاء من محيط محطة الصرف حفز الإنسان القديم للنقش والكتابة على هذه الصخور.

٤. سـاعد التركيب الجيولوجي في الموقع (موقع محطة الصـرف الصـحي) على تشكيل بعض الكهوف التي استخدمها إنسان العصر الحجري.

٥. هناك تنوعٌ وتباينٌ في المصـدر الخام لتصـنيع الأدوات الحجرية والمستوطنات فنجد في القمم صـخور البازلت هي المادة الأساسـية ويأتي الصوان في المواقع الأقل ارتفاعاً والحجر الرملي والكوارتز على ضفاف الأودية القريبة أو الواقعة في محيط محطة الصرف الصحي.

(*) وبعـد التعـرّف على هـذا الموقع الأثـري يتحدث أحمـد مطوان عن التأثيرات السلبية من جراء تنفيذ مشروع الصرف الصحي في الموقع، فيقول:

أولاً: التأثيرات على البحث العلمي والدراسة المستقبلية للموقع:

إن التأثير على الوسط الطبيعي الذي عاش فيه إنسان ما قبل التاريخ وإحداث تغييرات فيـه عن طريق تفريغ مياه الصـرف الصـحي في ذلك الوسـط يفقده أهميتـه ويؤثر على

نتائج الدراسات والأبحاث العلمية في الموقع مستقبلاً، حيث إن علم ما قبل التاريخ ودراسة العصور الحجرية تهدف إلى معرفة الإنسان وسلوكه في وسطه الطبيعي، في العصور الماضية التي لا نملك منها وثائق مكتوبة، فقد كان الإنسان في العصور الحجرية متفاعلا مع مكانه الطبيعي. ومن المهم أن يبقى الموقع الأثري على طبيعته حتى تتاح الفرصة للباحثين إعطاء نتائج علمية واقعة دون تأثير عوامل دخيلة وطارئة على الموقع، ومن تلك العلوم التي تهتم بدراسة مثل هذا الموقع علم الجيولوجيا الذي يهتم بالبيئة التركيبية، كما يمكن دراسة تغير أشكال التضاريس تحت تأثير العوامل المناخية.

وعلم التربة يدرس تشكلها تحت تأثير المناخ، وعلم البيئات القديمة يدرس تأثر النبات بعوامل الحرارة والرطوبة، ويمكّن التعرف على التحولات البيئية من خلاله، ومن خلال هذا العلم تدرس المستحثات الحيوانية والنباتية لمعرفة التحولات البيئية التي جرت في هذا الموقع الأثري. وعلم الترسبات يدرس كيفية تراكم الترسبات في المغاور والكهوف والملاجئ وعلى ضفاف الأودية، ومن البديهي أن تصريف سوائل الصرف الصحي في الموقع سيغير كمية ونوعية السوائل التي تجري في المنحدرات، وبالتالي يختلف معدل ونوع الترسيب، فمجاري المياه والأودية الطبيعية تقوم بجمع ونقل وترسيب كميات كبيرة من المواد والأدوات الحجرية، ويؤدي نشاط ألحت والترسيب إلى تشكل ما يسمى بمصاطب الترسيب التي يوجد بها أدوات ومقتنيات الإنسان في العصور القديمة. والمحافظة على البيئة الطبيعية لإنسان ما قبل التاريخ كما هي دون إحداث أي تغيير أو إدخال مكونات وعناصر دخيلة على المواقع الأثرية من أهم الأمور المطلوبة لدراسة تلك المواقع. ولعلي ألخص تأثير تفريغ مياه الصرف على البحث العلمي والدراسة المستقبلية لمكونات الموقع من خلال التأثير على:

١ ـ الإنسان:

من خلال دراسة بقايا هياكله العظيمة التي عادة ما تكون في المدافن والكهوف، وللأسف أن أنابيب تصريف مياه الصرف الصحي تبدأ بالصب فوق أحد الكهوف في الموقع الأثري الذي تم العثور فيه على كمية من الملتقطات السطحية مثل المطارق الحجرية والفؤوس الحجرية وأدوات جرش الحبوب وكسر الفخار. إضافة إلى أنها تصب في الحقول الزراعية التي استخدمها إنسان العصر الحجري.

٢ ـ السلوك:

دراسة سلوك الإنسان القديم الذي عاش في محيط هذا الموقع الأثري وأنشأ مواقع الاستيطان على امتداد الموقع وعلى امتداد مجاري المياه قد يكون هو السبيل الوحيد لمعرفة نوعية نشاط الإنسان في الموقع ومحيطه، ومن بين تلك الأنشطة بقايا الفحم والأدوات العضوية التي استخدمها الإنسان في بيئته مثل العظام وغيرها، وتصريف مياه

الصـرف فوق مواقع الاسـتقرار التي عاش فيها إنسـان ما قبل التاريخ على مدى آلاف السنين سوف يؤثر عليها بتغيير تركيبها الكيميائي أو إزالتها من موقعها.

٣ ـ الأنشطة التقنية:

الأدوات والمواد التي تم تصـنيعها يمكن أن تخبرنا عن وجود التطور التقني الذي وصل إليه إنسان ما قبل التاريخ، وهذه الأدوات التي صنعها إنسان العصر الحجري يتم دراستها بطـرق علمية من خلال التحليل الميكروسـكوبي والبصـرية الإلكترونية الهادفة إلى تحديد آثار الاستعمال، ويمكن أن تتم هذه الدراسةٍ على الأدوات العظمية، وتصريف مياه الصرف على هذه المواقع سوف يكون عنصراً طارئاً دخيلاً يفقد الموقع الكثير من دلالاته العلمية.

٤ ـ الأنشطة الاقتصادية:

دراسـة مواقع تصـنيع أدوات العصـر الحجري، ومواقع الأعمال اليومية مثل تقطيع اللحوم، ودراسة أرضيات السكن يمكن من خلالها تحديد العلاقة بين الأدوات والبقايا والإنشاءات الأخرى مثل المواقد والجدران، ومن البديهي أن تصريف مياه الصرف الصحيٍ في تلكٍ المواقع سوف يغير من شكل وتركيب تلك المواضع، خاصة عندما تصبح مياه الصرف تيارا مائيا شبه مستمر.

ثانياً: التأثير على السياحة البيئة في الموقع:

يتمتـع هـذا الموقـع الأثـري بمقومـات طبيعيـة تؤهلـه لأن يكـون مٍوقعاً للسـياحة والاستجمام إضافة إلى وجود الإرث الأثري في الموقع مما سيجعله موقعاً متكاملاً لتوفر عناصـر الطبيعة والآثار. لكن عندما يصـبحٍ الموقع مكباً لفائض الصرف الصحي فإن الموقع سيصبح طارداً بدلاً من أن يكون جاذبا للسياحة.

ثالثاً: التأثير على التنوع الحيوي:

يتمتـع الموقع بتنوع حيوي واسـع لوجود تنوع النبات والحيوانـات ووفرة الماء، وهذا نتاج طبيعي لمقومات العيش والظرٍوف الطبيعية لتلك الكائنات. لكن عند إدخال عنصر دخيل على تلك البيئة سيؤثر حتماً على التنوع الحيوي وتغير التوازن الحيوي في الموقع.

(*) ونقرأ آخر كتاب أحمد مطوان (التوصيات) التالية:

(١) إجراء المسـوحات الأثرية الميدانية التفصـيلية للموقع من قبل المختصـين في الجامعات وطلاب الدراسـات العليا ووكالة الآثار والمتاحف السـعودية، لأن الموقع يفتقر إلى هذه المسوحات. (٢) إعادة النظر في تقويم الآثار البيئية المترتبة على تٍنفيذ مشروع محطة الصـرف الصـحي في الموقع الحالي بكل موضـوعية وحيادية بعيداً عن الأهواء والمصـالح الآنية، مع مشاركة المختصـين في القانون والبيئة والتنوع الأحيائي والسياحة

والآثـار والتنمية المسـتدامة. (٣) إعـلان الحماية الوطنية للموقـع. (٤) تحويل موقع مشـروع محطة الصـرف الصحي إلى موقع آخر وتحويل مسـاره حماية للتراث الثقافي والطبيعي في محيط محطة الصـرف الصـحي ويوجد حلول بديلة لهذا الأمر، أسوة بما قامت به الهيئة العامة للسـياحة والآثار مشـكورة من تحويل مسـار مشروع تحلية المياه عـن الموقع رغم محدودية تأثيره مقارنة بالتأثير السـلبي لمحطة معالجة مياه الصـرف الصـحي في الموقع. (٥) مشـاركة عضـو أو أكثر من الهيئة العامة للسـياحة والآثار مع لجان إزالة التعديات في محيط موقع محطة الصـرف الصـحي، نظـراً لملاحظة تأثير الإزالة بالمعدات وبشـكل عشـوائي على بعض المواقع الأثرية تفوق تأثيرٍ المعتديٍ في كثير من الأحيان. (٦) تشـجيع السـياحة البيئيـة في الموقع واعتباره متحفـا مفتوحا لتميزه بكثافـة التراث الثقافي (الأثري) والتراث الطبيعـي. (٧) المطالبة بإدراجه على قائمة التراث العالمي ضمن المناطق الطبيعية الثقافية التي تمثل الأعمال المشتركة بين الطبيعة والإنسـان. وأضـم صوتي وأصـوات الكثير من أهالي منطقة عسـير إلى صوت الأستاذ أحمد مطوان، التي نرفعها إلى المسؤولين عن حماية التراث في المملكة العربية السعودية، ونطالبهـم بالمسـارعة في إنقاذ الآثار الطبيعية والثقافية المهـددة بالزوال والتدمير من خلال مشروع الصرف الصحي. ونأمل ألا يأتي اليوم الذي نقول فيه كما قال الشاعر:

لقد أسمعت لو ناديتَ حيّاً ... ولكن لا حياة لمن تُنَادي

ثالثاً: تنويهات وتعليقات:

أشكر كل من الأستاذين ابن مطوانٍ وابن معبِّر اللذين يخدمان تراثنا وتاريخنا المحلي، ولعـل أقوالهما وتوصـياتهما تجد قبولا عند الـوزارات، والجامعات، والمؤسسـات العلمية والبحثيـة فتعمل كل ما في وسـعها لخدمة ميادين البحوث العلميـة التي لها علاقة كبيرة بإنسان وأرض السروات وتهامة المليئة بالكنوز الثقافية والمعرفية القديمة والحديثة. ومن خلال تجوالي في عموم السـراة وتهامة وزيارة جميـع الجامعات الحكومية في هذه البلاد مـن مكة المكرمة والطائـف إلى جازان ونجران، وحديثي مع بعضـ عمداء ووكلاء كليات الآداب والعلوم الإنسـانية، وأيضا الالتقاء بالعديد من الأساتذة أعضاء هيئة التدريس في أقسام التاريخ، واللغة العربية، والجغرافية، وتذكيرهم بالواجب علينا أساتذة الجامعات تجاه خدمة آثارنا وتراثنا المادي والمعنوي. وقد وجدت البعض منهم يؤيدون ويتفقون معي فيما أشرت إليه، لكنهم لا يجدون الدعم والتشجيع، والواجب على هذه الجامعات المحلية، وإمارات المناطق، وإدارات التعليم أن تتضـافر جهودها فتخطط وتدعم وتشـجع كل عمل يكونٍ فيه فائدة علمية وبحثية لخدمة هذه البلاد الجنوبية السـعودية، أرجو أن نرى ذلك مفعلاً وواقعا يتحقق في القريب العاجل. (والله من وراء القصد).